

والملك قائم مكانه ينظر ويصغى، ولا يزيد على النظر والإصغاء، وماذا يستطيع الملك أن يفعل وقد زلزلت الأرض زلزالها، وليست السماء أبشع ثوب رآه سكان الأرض والجو، فالظلام يتكاثف، والسحاب يتراكم ويتدافع، والبرق يغمر المدينة بضوء مخيف لا يكاد ينصبُّ عليها حتى ينقشع عنها، والرعد يتجاوب في الجو بأصوات متهدجة كأنها أصوات الجبال، والبحر من بعيد هائج مائج تصطبخ أمواجه اصطخاباً لا عهد لأحد به، وترتفع إلى السحاب فتتصل به لا يُدرى أبلغته لأنها ارتفعت حتى انتهت إليه، أم بلغها لأنه انخفض حتى انتهى إليها، أم صعدت هي في السماء ما وسعها الصعود وهبط هو إلى الماء ما وسعه الهبوط حتى التقت السماء والماء شر لقاء.

وفاتنة قائمة باسمه لا تقول شيئاً، ولا تأتي حركة، ولا يظهر على وجهها الروع أو ما يصور الروع من قريب أو بعيد. على أنها تسعى رفيقة رشيقة محتفظة بابتسامتها الحلوة حتى تبلغ أباهها الملك، فتمس كتفه في خفة وسرعة، وتقول له في صوت هامس عذب: «منظر رائع يا أبت!»

ويهم الملك أن يقول شيئاً، ولكنه يُردُّ عن القول؛ فهذه المناظر الرائعة المروعة الهائلة ثابتة لا تتحول مرسله للروع والروعة جميعاً دون أن يصيب المدينة منها شر أو ينال أهل المدينة منها مكروه. هذا البحر قد بلغ من الهياج أقصاه، وانتهى من الثورة إلى غايتها، حتى لا يشك من يراه أنه متجاوز حدوده، فغامر ما وراءها لا يدع شيئاً أتى عليه إلا ازدرده ازدراداً وعفى على آثاره تعفية كأن لم يغن بالأمس، وهو على ذلك واقف عند حدوده لا يتجاوزها، بل لا يكاد يبلغها، كأن سدوداً خفية قامت بينه وبين هذه الحدود ترده عنها وتمنعه أن يبلغها فضلاً عن أن يجوزها، وهو يثور ويمور ويهيج ويموج ويرسل في الفضاء أصواتاً منكرة، كأنما تتمزق عنها أمواجه تمزقاً، ولكنه على ذلك لا يبلغ شيئاً، ولا يستطيع أن يمس الأرض بأذى.

وهذه قطع السحاب تزدهم وتصطدم، وتحدث ما تحدث من بروق ورجود، وترسل ما ترسل من الصواعق المهلكة، ولكنها على ذلك لا تصيب أحداً بما يحب ولا تصيب أحداً بما يكره، وإنما هي تأتي ما تأتي من الأمر وتحدث ما تحدث من الهول كأنها تلعب فيما بينها تريد أن تظهر أهل الأرض على فنون من اللعب ليس لهم بها عهد من قبل.

وهذه الرياح تتناوح، منها ما يقبل ومنها ما يدبر، ومنها ما يئامن ومنها ما يُشائم، ولها أحياناً هفيف كهفيف الأغصان، وأحياناً أخرى فحيح كفحيح الحيات، وأحياناً أخرى صفير مخيف، وأحياناً أخرى زئير مزعج، ولكنها على ذلك لا تصنع شيئاً ولا تؤذي أحداً.